عالمية الإسلام *

للأستاذ الدكتور شوقى ضيف

- ١ -

يتردد فى القرآن الكريم أن كل رسول من رسل الله أرسل إلى قومه وحدهم ما عدا محمدا — صلى الله عليه وسلم — فنوح أرسل إلى قومه يدعوهم لعبادة الله ومثله إبراهيم ولوط ، وأرسل هود إلى عاد، وصالح إلى ثمود، وشعيب إلى أهل مدين وعيسى إلى بنى إسرائيل، أما محمد صلى الله عليه وسلم فأرسل إلى جميع الناس ، يقول الله فى سورة الأعراف مخاطباً رسوله: " قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا " فمحمد مرسل إلى جميع الناس عربا وغير عرب . ويقول الله فى سورة يوسف وص والتكوير فى وصف القرآن : " إن هو إلا ذكر للعالمين " وفى سورة القلم : " وما هو إلا ذكر للعالمين " والعالمين جمع عالم (بفتح اللام) أى أن القرآن ذكر للعالم كله بأجناسه ، وجمع للدلالة على الاستغراق فهو موجه للعالم جميعه . ويقول الله لرسوله فى سورة الأنبياء " وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " إذ أرسله إلى البشر جميعا بدينه القويم الذى يسعد الناس فى الدنيا والآخرة .

ويقول الله فى سورة سبأ : " وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا " فالله لم يرسل محمدا لقريش والعرب خاصة ، بل أرسله للناس كافة فى مشارق الأرض ومغاربها ليبلغهم رسالته ، مبشرا من آمن به ، فوحد الله واعتنق شريعته الإسلامية وما بها من أوامر ونواه بأن الله سيدخله جنته وينعم فيها نعيما أبديا ، وينذر من أشرك بالله وعبد آلهة متعددة ورفض رسالته وشريعته بأن مصيره إلى عذاب النار الأليم فى الآخرة . ويكرر الرسول فى أحاديثه أنه مرسل — كما يقول الله — إلى الناس جميعا ، فعن ابن عباس أنه قال : "بعثت إلى الناس كافة : الأحمر والأسود"، والعرب تسمى الأبيض أحمر، أى أنه بعث إلى البشر جميعا ، وفى حديث ثان عن جابر بن عبد الله قوله : "كان النبي يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة" .

* ألقيت هذه المحاضرة فى الجلسة العاشرة من جلسات مؤتمر المجمع في دورته الثانية والستين مساء يوم الاثنين ٦ من ذى القعدة سنة ١٤١٦هـ الموافق ٢٥ من مارس (آذار) سنة ١٩٩٦م

وهذه العالمية فى الدين الإسلامى والأمر الإلهي بتوجيهه إلى جميع الناس جعلت الله يفرض معها عل الرسول والمسلمين أن يتعايشوا فى ديارهم مع جميع مَنْ بها من أصحاب الديانات والملل-إلهية وغير إلهية- تعايشًا قويمًا ، وقد وضع القرآن الكريم قانونا عاما التزم به الرسولُ والمسلمون فى جميع عصورهم ، وهو : " لا إكراه فى الدين " . وبذلك كان الإسلام يكفل فى دياره لجميع الناس على اختلاف مللهم الحرية الدينية فلا يجبر أحد على اعتناق الإسلام مكرها قهرا ، بل يترك الناس وما اختاروا لأنفسهم من الدين ، ولذلك يقول الله لرسوله فى سورة يونس منكرا عليه شدة حرصه على إيمان المشركين من أهل مكة بالإسلام : " ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين " بدينك إنه ينبغي أن تترك للمشركين من قريش حريتهم الدينية فإن شاءوا تبعوك وإلا فدعهم . والتزم الرسول ذلك فكان لا يكره ــ ولا يقبل أن يكره أحد صحابته ــ شخصا على الدخول فى الإسلام .وفى تفسير ابن كثير أن مسلما من الأنصار كان له ابنان نصرانيان فقال للرسول صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما على الإسلام فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فيه آية " لا إكراه فى الدين ". وكانت المسلمون فى الأندلس طوال العصور الماضية لا يقبلون من أحد اعتناق الإسلام إلا بوثيقة يعلن فيها أمام قاض وشهود بأنه اختار الإسلام بكامل حريته. وفى تفسير ابن كثير عن ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يأمر أن لا يتصدق إلا على أهل الإسلام فأنزل الله قوله لرسوله : " ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى مَن يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله". والله يقول لرسوله : إنك لست مكلفا بهداية المشركين ، ودع المسلمين يتصدقون على فقرائهم كما يتصدقون على فقراء المسلمين ، والصدقة إنما هى لابتغاء وجه الله لا لمراعاة حال مسلم ومشرك . وبالمثل يأمر الله المسلمين أن يعفوا عن أذى المشركين فى سورة الجاثية قائلا : " قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله " ولا يسألونه فضله . والله يريد بهذه الآية والآية السابقة لها أن

يكون بين المسلمين والمشركين صفاء حتى مع إيذائهم لهم . ويمتدح الله كرماء المسلمين أهل البر فى سورة الإنسان قائلا: " ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا " فهم يطعمون الطعام على حبه، أى مؤثرين به المحتاجين من المساكين واليتامى والأسرى ، وكان الأسرى حينئذ من المشركين . روى ابن كثير عن ابن عباس أن أسرى معركة بدر من المشركين كانوا سبعين رجلا، وأمر الرسول أصحابه أن يكرموهم، فكانوا يقدمونهم على أنفسهم حين يحضر الغداء . وهذه الحرية الدينية وما رافقها من طلب المعاملة الكريمة للمشركين فضلا عن أهل الكتاب تدل بحق ــ على عالمية الإسلام،إذ فرض على المسلمين أن يتعايشوا مع المشركين فى محيط أمتهم قائلا :"لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين،ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم،إن الله يحب المقسطين ". وحتى المقاتلين منهم حين يأسرهم المسلمون ، يطلب الله إلى المسلمين أن يطعموهم ويكرموهم . وقد كفل المسلمون فى كل ديارهم لجميع أصحاب الملل دون أى استثناء المحافظة على معابدهم وأموالهم، وأن يؤدوا شعائرهم بحرية تامة . وكانوا منذ جيلهم الأول فى عصر الخلفاء الراشدين يتعايشون فى ديارهم هذا التعايش الجماعى مع أصحاب الكتب السماوية،ومع الصابئة عبدة الكواكب فى شمالى العراق، ومع المجوس عبدة النار فى إيران ،مؤمنين بأن تلك مشيئة الله فى خلقه للأفراد والشعوب أن تختلف فيهم النزعات، وتختلف الآراء وتختلف الديانات والملل ، كما قال تعالى لرسوله فى سورة هود : " ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين". أى أمة تدين دينا واحدا ، وهو ما لم يجعله الله للناس ، إذ جعلهم مختلفين ملة وعقيدة ودينا وسيظلون مختلفين ، لذلك ينبغى أن يرتضى المسلمون فى ديارهم كل من يخالفهم فى دينهم من أصحاب الملل، إلهية وغير إلهية .

أما الجزية التى فرضت على المشركين، وأهل الكتاب فى الأقطار الإسلامية بالعصور الماضية، فلم تكن ضريبة دينية، إنما كانت ضريبة دفاع لأنهم لا يشتركون فى الجيش الإسلامى ولا فى الحرب ، ولذلك كانت لا تؤخذ إلا ممن يصلح

لحمل السلاح ، فلا تؤخذ من الصبى ،ولا من الشيخ، ولا من المرأة، ولا من راهب، ولا من رجل دين، وكانت زهيدة فكانت غالبا لا تتجاوز دينارا واحدا فى العام .

وبهذه الصورة العالمية للإسلام كان المسلمون يعيشون فى ديارهم من إيران شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا، متعاونين مع كل من عاش معهم من أصحاب الملل والنحل ، وفى هذا المناخ الإسلامى الحضاري، كان يجتمع ذوو النحل المختلفة بمجالس علماء علم الكلام المسلمين، ويتحاورون فى نحلهم وعقائدهم، ويتناظرون بحرية تامة ، من ذلك مجلس بالبصرة والحياة الإسلامية فى الأوج السياسي وفى هذا المجلس يقول صاحب النجوم الزاهرة فى الجزء الثانى ص٢٩ : "كان يجتمع فيه عشرة لا يعرف مثلهم : الخليل بن أحمد، صاحب علم العروض وهو سنى . والسيد الحميرى الشاعر وهو شيعى رافضى، وصالح بن عبد القدوس وهو ثنوى (يؤمن بإلهين على دين مانى الإيرانى) وسفيان بن مجاشع وهو صفرى (من الخوارج) وبشار بن برد الشاعر وهو خليع ماجن ، وحماد عجرد وهو زنديق ، وابن رأس الجالوت الشاعر وهو يهودى، وابن نظير النصراني وهو متكلم ، وعمرو بن أخت الموبذ وهو مجوسى ، وابن سنان الحرانى الشاعر وهو صابئي . وهو مجلس كان لا يمكن أن يحدث مثله فى أى أمة، لولا أن القرآن ألزم المسلمين بالتعايش فى ديارهم مع كل أصحاب الملل والنحل ، وأنه لما خلق البشر، جعلهم بطبيعة تقضى باختلافهم فيما يعتقدون وينتحلون ، فعاملوا أصحاب النحل والملل معاملة حسنى ، وفتحوا لهم مجالسهم على هذا النحو، يتحاورون معا فى المعتقدات والآراء محاورات حرة . وظل ذلك طويلا فى مجالس علماء الكلام بالعصر العباسي .

ففقيه محدث أندلسى يسمى أحمد بن محمد بن سعدى ، نزل بغداد فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى ، وعاد منها إلى القيروان ، فسأله فقيهها ابن أبى زيد المتوفى سنة ٣٨٦ للهجرة : هل حضرت مجالس أهل الكلام ؟ فقال : حضرت مجلسين ، وأول مجلس حضرته جمع الفرق كلها : المسلمين من أهل السنة والبدعة والكفار من المجوس والدهرية

والزنادقة، واليهود والنصارى وسائر أجناس الكفر . ولكل فرقة رئيس يتكلم على مذهبه ويجادل عنه . وإذا جاء رئيس من أى فِرقةٍ كانتْ ، قامت الجماعة إليه قياما على أقدامهم حتى يجلس فيجلسوا بجلوسه ، فإذا غَصَّ (ازدحم)المجلس بأهله، تناظروا بالحجج العقلية . وقيل لى: ثم مجلس آخر للكلام ، فذهبت إليه ، فوجدتهم مثل سيرة أصحابهم السالفين" .

وهذا الخبر مثلُ سابقه، يصور كيف أن الإسلام ــ منذ ظهوره فسح المجالات فى دياره للتعدد فى الأقوام والديانات والعقائد والآراء والأفكار . فهذه مجالس المتكلمين ــ منذ احتدمت فى العصر العباسى ــ تضم بجانب علماء الكلام المسلمين متكلمين من الفرق كلها : من أهل السُّنة والبدعة المسلمين، ومن المجوس والمانوية والدهرية والزنادقة والصابئة، ومن اليهود والنصارى . وكل ذلك بفضل عالمية الإسلام التى وسعت كل الملل والنِّحل إلهية وغير إلهية، حتى المجوس والصابئة والزنادقة والدهرية،الذين لا يؤمنون بالآخرة .

ــ٢ــ

ومن عالمية الإسلام أن جعل العقل حَكَمًا فى كل ما يتصل به خاصة فى الإيمان بالله ووحدانيته ، فالمسلم لا يكون مؤمنًا كاملاً إلا إذا عقل دينه واقتنع به عن بينة،والقرآن هو الكتاب السماوى الوحيد الذى يضع البينة أمام عقل الإنسان، ليؤمن بأن له إلها واحدا ، ويكررها عشرات المرات ، إن لم يكن مئاتها ، وهى خَلْقه للآيات الكونية ، فإن من ينظر فيها ويتأمل، يَهْديه تأمله إلى أن لها خالقا صنعها ويدير نظامها . يقول جل شأنه : " إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس،وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخَّر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون "

والله يدعو الناس فى الآية إلى أن يتأملوا فى خلق السموات التى تبدو كقبة زرقاء ،وما يسبح فيها من كواكب ونجوم ، ويتأملوا فى خلق الأرض وما فيها من بحار وجبال وأنهار وزروع مختلفات ، ويتأملوا فى اختلاف الليل والنهار ،ظلمة وضياء ، وطولا وقصرا ، ويتأملوا فى الفُلك التى تجرى فى البحار بما ينفع الناس، من ركوبها

والتنقل بها وحمل تجاراتهم ، ويتأملوا فيما أنزل الله من السماء أى السحاب من مطر، فأحيا به الأرض بعد موتها بأنواع النباتات والأشجار والزروع والبقول والثمار والرياحين، ونشر فيها أنواع الحيوانات أليفة ووحشية، ودبر رزقها وعرفها مأواها، وتأملوا تصريف مهاب الرياح شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، والسحاب المذلل لحمل الأمطار المنقاد من جهة إلى جهة، ليسقط مطره عليها ، فتحيا ويعود إليها الحسن والبهاء .إن فى ذلك كله لآيات تشهد بأن للكون خالقا، جعل فيه هذا النظام البديع المحكم. ويذكر الله فى سورة يس ، قسمته اليوم للإنسان بين نهار خلقه مضيئا كى يعمل فيه لمعاشه ، وليل خلقه مظلما كى يستجم فيه للراحة والنوم ، وبذلك جعل الله النهار معاشا والليل سكنا ، ولو كانت الدنيا نهارا خالصا لكلت قوى الإنسان ، ولو كانت ليلا صرفا لبطلت حركته . ويقول الله تعالى:" والشمس تجرى لمستقر لها": أى حتى مكان غروبها اليومى .ويشير لله بجريها إلى ما يترتب عليه من فصول السنة ،وأنها تجرى بنظام كونى محكم.

ويقول إن القمر يجرى مثل الشمس فى منازل وصور ،حتى يصبح كعرجون النخل القديم، وبجتمع شماريخه باصفراره وتقوسه . وهاتان المسيرتان للشمس والقمر مقدرتان بنظام دقيق ،" لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ". فلكل منهما مداره " ولا الليل سابق النهار " فلكل منها وقته المحدد المعلوم . وتلك آيتان كونيتان عظيمتان . وهما تدلان بوضوح على عظمة خالقهما وتدبيره الدقيق لهما ، وإن مداومة التفكير فيهما وفى آيات الله الكونية الأخرى فى القرآن ليملأ قلب الإنسان إيمانا بالله وعرفانا بألوهيته ووحدانيته ، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : "لا عبادة كالتفكر فى الكون وما فيه من عجائب الخلق" .

وينعى الله على الكفار إشراكهم فى عبادته آلهة لهم وأنهم لم يفيدوا أى فائدة من العقل الذى أهداه إليهم فى معرفته والإيمان بألوهيته ، يقول : " لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون " والله ــ جل شأنه ــ يقول إن المشركين الكفار عطلوا

قلوبهم أى عقولهم عن النظر فى ملكوته وآياته الكونية والتأمل فيها ، فلم تعد تفقه أو تدرك شيئا ، وعطلوا أعينهم فلم تعد تنظر فى الكون شيئا يهديها إلى الحق ، وعطلوا آذانهم فلم تعد تنتفع بما تسمع من القرآن وما فيه من الهدى إلى عبادة الله ، ويقول الله إنهم مثل الأنعام من الإبل والبقر والغنم فلا عقل لهم ولا إدراك ولا بصيرة " بل هم أضلّ " من الأنعام ، إذ لا يؤدّى بها ضلالها أن تسقط فى مهاوى الضلال ، لما ألهمها الله من معرفة مضارّها ومنافعها ، أما المشركون فإنهم حجبوا عقولهم عن التأمل السديد فى الكون تأملا يهديهم إلى معرفة الله وعبادتهم له وحده ، وإنهم لغافلون عن سعادتهم فى الدنيا والآخرة. وإذا تركنا هذه المحاكمة الكونية إلى العقل ونظرنا فى المحاور العقلية العامة للدعوة الإسلامية فى القرآن الكريم وجدناها — كما لاحظ ابن رشد — تعود إلى ثلاثة محاور ، هى البرهان العقلى والعِظة والجدال السديد . ومن أمثلة البرهان العقلى فى القرآن الكريم استدلال الله على انتفاء الشركاء له فى الألوهية بقوله : " وما كان معه من إله إذًا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون " . والله يقول محتجًّا على من يدعون أنّ معه آلهة أخرى إن ذلك يقتضى أن يستقل كل إله بطائفة من المخلوقات ، ويصبح كل إله عاجزا عن السيطرة على مخلوقات غيره ، مما يثبت العجز على رُبوبيته ، وهو محال فى حقيقة الألوهية . ودليل ثان أنه لو كان فى الوجود آلهة أخرى ولكلِّ إلهٍ مخلوقاته لاصطدمت قدرته وإرادته بقدرة الآلهة الأخرى وإرادتها ، وتحاربوا — كما يتحارب الملوك فى الأرض — ابتغاء علو السلطان . والدليلان يؤديان إلى انتفاء شريك لله أو شركاء ، لأن الشريك — ومثله الشركاء — لن يكون بيده ولا بأيديهم ملكوت كل شئ فى العالم ،وهو تصور غير صحيح ، لأنه لا يمكن أن يحدث ، إنما هو إله واحد متصرف فى الكون ، تعالى وتنزه عن إشراك له فى ملكوته — ومن أمثلة العظة فى القرآن ما ذكرناه من عرض الله آياته الكونية على الناس لتتأمل عقولهم فيها وتنفذ إلى الإيمان به ووحدانيته ، ومثلُ ذلك قصص الرسل وأقوامهم فى القرآن الكريم ، فقد أكثر

القرآن من تكرارها وتردادها ليتعظ الناس فلا يكذِّبوا الرسل بما جاء هم به من الهدى الذى يكفل لهم السعادة فى الدنيا والآخرة حتى يصيبهم ما أصاب المكذبين للرسل مثل ما أصاب قوم نوح من الطوفان وقوم هود من الريح العاصفة العاتية فدمرتهم وقوم صالح وما نزل بهم من صيحة وبيلة أتت عليهم إلى غير ذلك من قصص أقوام الرسل الذين كذبوهم فنزل بهم عقاب أليم فى الدنيا وينتظرهم عقاب أشد إيلاما فى الآخرة ، وهو قصص يراد به العظة والعبرة . ومن أمثلة الجدل الشّديد أنه لما نزلت آية سورة الأنبياء الموجَّهة إلى أهل مكة : " إنكم وما تعبدون من دون الله حصبُ جهنم " أى حطبها يوم القيامة لقى ابن الزيعرى الشاعرُ الرسول صلى الله عليه وسلم فقال ألست تقول : " إنكم وما تعبدون من دون الله حَصَبُ جهنم " فقال الرسول بلى ، فقال : أكل ما يعبد من دون الله فى جهنم مع من عبدوهم لقد خُصِمْت ورب الكعبة " أى غلبت " ألست تزعم أن الملائكة عباد مكرمون وهم يعبدون فى خزاعة ، وهذه النصارى يعبدون المسيح وهذه اليهود يعبدون عزيرًا نبيهم ، فهل عزير والمسيح والملائكة سيكونون حصبا لجهنم . ولم يغضب الرسول حين سمع هذا الجدل بل قال له فى سماحة : اقرأ ما بعده : " إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون " . ومن تمام العقلانية فى الإسلام نهى الله والرسول عن السحر والتعلق به وبكل من يزعم أنه يؤثر فى الناس خاصة الكهان والعرافين والمنجمين ، فكل ذلك باطل وقبض الريح ويشدد الرسول فى النهى عنه، وبالمثل كان ينهى عن الخرافة وكل ما يتصل بها وعن كل شعوذة ويعد ذلك كله خروجا على الإسلام وتعاليمه .

ـ٣ـ

ومن عالمية الإسلام دعوته القوية إلى العلم والتعلم حتى ليصبح ذلك شعارًا له منذ فجره الأول وطوال عصوره ، فقد أشاد الله بالقلم والعلم والتعليم فى أول آيات نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم حثًا لأمته على تحصيل العلم،وأقسم الله فى أول سورة (ن) بالقلم وما يسطرون إرهاصًا بأن الأمة الإسلامية ستكون أمة علم وفكر وكتابة ، ويأمر الرسول

والمسلمين فى سورة طه بأن يضرعوا إليه داعين أن يزيدهم علما ومعرفة . ويعلى الله فى القرآن دائما قَدْرَ العلم والعلماء إعلاء عظيما ، وقد جعله ميزة كبرى لآدم أبى البشر إذ قال للملائكة فى أوائل سورة البقرة:" إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال: إنى أعلم مالا تعلمون، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال: أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين " وعجزوا فقال : " يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم "أمرهم بالسجود له تعظيما لعلمه.والله ـــ بذلك ـــ جعل منزلة علم آدم بالأسماء فوق منزلة تسبيح الملائكة بحمده وتقديسه مما يرفع مكانه العلم إلى أعلى مرتبة.ويكثر الرسول صلى الله عليه وسلم من دعوة المسلمين إلى العلم والتعلم، وكان يقول إن الخروج فى طلب العلم مثل الخروج للجهاد الحربىّ فى سبيل الله ، وعلى ضوء سجود الملائكة لآدم كان الرسول يقول :فضل العالم على العابد كفضلى على أدنى الصحابة ، وهو بذلك يجعل منزلة العالم فوق منزلة العابد لربه ، وأشار الله فى القرآن إشارات مختلفة إلى العلوم الطبيعية والفلكية كما فى الآيات الكونية التى ذكرت أن الله خاطب بها عقل الإنسان لتهديه إلى الإيمان به . وبالمثل فى القرآن إشارات إلى العلوم الرياضية والطبية، كما فى آيات سورة المؤمنون وتصويرها المعجزة الطبية الربانية التى تعرض ـــ بدقة ـــ أطوار الجنين حتى يتخلق كائنا حيا . وبهذه الروح العلمية التى بثها القرآن والحديث فى نفوس العرب أقبلوا بعد الفتوح الإسلامية على ما لدى الأمم الأجنبية من معارف تتغذى بها عقولهم ، ونقل لهم عشرات من المترجمين ـــ تموج بهم صفحات كتاب الفهرست لابن النديم ـــ أهم ما فى الثقافات الهندية والفارسية واليونانية من علوم ، ونقلت إليهم الفلسفة اليونانية وانصهرت كل هذه الثقافات فى الفكر العربى ، وسرعان ما أخذ يظهر فى كل علم عالم عالمى مثل: جابر بن حيان الكيميائى، والخوارزمى الرياضى، والطبيب الرازى، وامتزجت الفلسفة بروحانية الإسلام ، وافتتح الكندى معاصر المأمون سلسلة فلاسفتها الإسلاميين العظام . وظلت الحضارة

العربية وما تحمل من الفكر والعلم والفلسفة تقود العالم وحدها طوال خمسة قرون من القرن الثامن الميلادى حتى الثالث عشر ، وأكب الغرب على نقل علوم العرب وفلسفتهم فى الأندلس وصقلية منذ القرن الحادى عشر الميلادى واستحالت منارات له إلى حضارته الغربية الحديثة . وإنما استطردت هذا الاستطراد لأبيِّن مدى الطاقة التى بثها القرآن فى نفوس العرب بجعله علم آدم فوق تسبيح الملائكة لله ، وبثَّها الحديث أيضا فى نفوسهم بجعله العلم الأفضل من العبادة ، وإن الرسول ليقول :" فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب". وبذلك ظل الإسلام دافعا لحركتنا العلمية والحضارية ومعانقا لها حتى بلغت الأوج معه فى العالمية .

ومن عجب أن يقرأ بعض المثقفين عندنا ما حدث فى الغرب بالقرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاد من تنازع عنيف بين السلطتين الدينية والزمنية أو بعبارة أخرى بين الكنيسة والدولة ، وأيضا وقوف الكنيسة أحيانا ضد العلم والعلماء ، فنقلوا ذلك إلينا وحاولوا أن يطبقوه خطأ بين الإسلام والدولة ، وبين الإسلام والعلم ، وهم فى التطبيقين مخطئون خَطَأَيْن كبيرَيْن ، أما الخطأ الأول فلأن الإسلام ليس فيه كنيسة على نحو ما هو معروف فى المسيحية ، وأما الخطأ الثانى الذى يذهب أصحابه إلى أن الدين يعارض العلم - كما صنعت الكنيسة المسيحية أحيانا - فإن ذلك لم يحدث يوما بين الإسلام والعلم بل لقد دعا الإسلام - كما رأينا - المسلمين دعوة كبرى إلى التزود بالعلم زادًا يهيئهم للنبوغ فيه ، وقد هيأهم - فعلا فى العصور الماضية - لإحداث نهضة علمية عالمية ، ودفعَنا فى نفوس عصرنا الحديث إلى إحداث نهضة علمية مماثلة منذ عصر محمد على إلى عصر عباس نقلنا فيها العلوم الغربية إلى العربية ، واستحالت العربية لغة علمية تستوعب جميع العلوم الغربية فى القرن الماضى إلى أن وقف الإنجليز هذه النهضة العلمية المباركة، إذ جعلوا تعليم العلوم فى المدارس العليا بلغتهم الإنجليزية ، وهى تنحسر الآن عن بعض العلوم فى الجامعات وعن السنتين الأولى والثانية فى الكليات العلمية،

والمأمول أن تنحسر نهائيا عن سنواتها جميعا وتنحسر معها تبعيتنا العلمية للغرب وتسترد العربية سيادتها اللغوية فى ديارها كاملة .

ــ٤ــ

ومن عالمية الإسلام نظامه الاقتصادى القائم على فرض زكاة الأموال على الأغنياء وما يتبعها من الصدقة ، فقد جعلها فريضة سنوية ، وقرنها فى كثير من آيات القرآن إلى الصلاة إذ جعلها عبادة له مثلها، بل إنه ليقرنها أحيانا إلى الإيمان به تعظيما لها ، ويقول إنه يضاعف الجزاء عليها إلى سبعين ضعفا بل إلى سبعمائة كحبَّة بُذرت فى أرض خصبة ، ونالها غيث فأنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبةّ . ويَرْفق الله بآخذى الزكاة والصدقة ويلطف بهم أعظم لطف ورفق إذ يطلب إلى صاحب الصدقة والزكاة أن لا يمسَّ شعور آخذهما بأى إيذاء من قريب أو من بعيد ، وأن لا يتبع صدقته وزكاته بأى مَنٍّ على الفقير والمسكين، كأن يتطاول عليهما بأنه يطعمها أو لولاه لجاعا أو أنه ينبغى عليهما شكره، ونحو ذلك من ضروب المنِّ المؤذية للشعور ، ويقول الله : " قول معروف " أى كلمة طيبة " خير من صدقة يتبعها أذى " يلوثها أويسممها وكأن هذا الإيذاء للصدقة موجه إلى صاحبها فيقول : " والله غنى " عن هذه الصدقة " حليم " أى أنه لا يعاقب عليها فى الدنيا إنما يعاقب عليها فى الآخرة . ويستحب الله إخفاء الصدقة على الفقير حفظًا وصيانةً لماء وجهه ، ومحافظة على شعوره ، حتى لا يعلم بها أحد مهما كان قريبا أو غير قريب ، وكان يقال: خير المتصدقين مَنْ لا تعلم شماله ما أنفقت وتصدقت به يمينه . وعلى هذا النحو فرض الإسلام على المسلم أن يقدم من ماله سنوياً فرضا مكتوبا عليه للفقراء وللصالح العام ، وبذلك أصبح للفقير حق معلوم فى مال الغنى سوى ما يؤدِّيه من الصدقة راضيا ، مما يجعل أفراد الأمة تترابط ترابطا اقتصاديا ، ويسود بينهم تعاطف ومودة ، إذ يَبَرُّ الأغنياء الفقراء برًّا متصلا تدفعهم إليه عقيدتهم الروحية التى نزل بها الإسلام ، وهو برٌّ موجه لرضا الله عن صاحبه ، مما يجعله عبادة وزلفى إليه أملا فى أن يجزى صاحبه عليه الجزاء الأوفى .

ومن عالمية الإسلام دعوته بقوة إلى المساواة بين أفراد النوع الإنسانى ، فهم جميعا أبناء أب واحد هو آدم ، ويقول الله إنه خلقهم شعوبًا وقبائلَ ليتعارفوا لا ليتفاخروا ولا ليتعاركوا ، بل ليعبدوا الله حق عبادته ، ويعلن الرسول لأمته:" أنه لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ولا لأحمر أى أبيض على أسود ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى" .وهى صورة ضخمة من عالمية الإسلام إذ ألغى العنصرية نهائيا وفوارق الجنس واللون ، وجعل المساواة بين أفراد البشر قانونًا خالدا ، فالجميع متساوون سواء أكانوا عربا أم غير عرب ، وسواء أكانوا سودًا أم غير سود ، وسواء أكانوا بيضًا أم غير بيض .

أيها السادة :

بقى مقومان من مقومات عالمية الإسلام لا يتسع الوقت لبسط الحديث فيهما ، وهما العدل الذى لا تصلح حياة الأمم بدونه، والسلام ، والله ــ جل شأنه ــ يكرر فى القرآن الكريم أنه خلق الكون بقوانين عدل تام دون تفريط أو إفرط ، ويأمر المسلمين أن يتخذوه قانونًا عامًّا فى كل ما يأتون من القول والفعل فى حياتهم وفى جميع علاقاتهم وفى القضاء والحكم . ويقول الرسول إن من يلتزمون العدل سيكونون يوم القيامة على منابر من نور . ونهى الله ورسوله عن الظلم بكل صوره وتوعَّدَا الظالم بعقاب أليم فى الآخرة . ودعا الله ورسوله دعوة كبرى إلى السلام وأن يعم الأرض وجعلاه التحية اليومية للمسلم، إذ يبادر من يلقاه من إخوانه المسلمين وغيرهم بقوله السلام عليكم ، وهى تحية تحمل فى أطوائها الأمان والمودة. والإسلام بذلك يدعو ــ منذ أربعة عشر قرنا ــ إلى أن يسود السلام فى العالم . وقد جعله الله اسمًا من أسمائه الحسنى . وسمى الجنة دار السلام، تحبيبًا للمسلمين فيه وحثًّا عليه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،

شوقى ضيف

رئيس المجمع